

الأديب و المُفكِّر الرَّاجِل رَمَضانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَدُ

كيف وماذا نعلن
سقوط الفكر الغربي ؟

الحلقة الرابعة

حضارتا البحر الأبيض المتوسط

للبحر الأبيض المتوسط قصة حافلة بالأحداث المعجبة المدهشة . لقد تتابعت فوق مياهه ومن حول شطآنه وسواحله مواكب من البشر لا تقع تحت الحصر. كانت بينها مواكب البرابرة واللصوص وقطاع الطرق والشعراء والسحرة والمغامرين السياسيين والقديسين والعلماء والفلاسفة والأنبياء وبعض الناس الذين كانوا ذوي شخصيات باهتة لا لون لها ولا ميزة خاصة ولكنها بقيت ولا تزال حتى اليوم المادة التي وضعت وتوضع تحت الاختبار وتستقبل الآثار التي يحدثها الأفراد الممتازون والأذكياء الموهوبون.

والدراسة المستأنية الواعية لأصناف هؤلاء البشر هي وحدها التي تصنف مواكبهم وتعين الخصائص التي يستقل بها كل موكب من هذه المواكب أو كل مجموعة منها.

وكما أن الدارسين من أصحاب العقول الممتازة وقد أقبلوا على الطبيعة وأشياء الكون يتأملون ويتدبرون ما فيها من أسرار ومجاهيل فقد شعروا بالحاجة الماسة إلى اكتشاف الخصائص العامة لمواكب البشر وتعيين الإطارات التي تميز كل مجموعة منهم.

ولا خلاف في أن شعوب البحر الأبيض المتوسط كانت ولا تزال المادة الخصبية للدارسين والينبوع الأساسي للموجات الفكرية والروحية والعسكرية التي اجتاحت الأقطار والقارات المعروفة في عصر كل موجة من هذه الموجات الكثيرة.

إن في وسع الفنان الذي يسافر بخياله على امتداد القرون فيذهب به بعيدا إلى أعماق التاريخ، أن يجد عند كل قرن وفي كل زاوية قصة حافلة بأنباء الانتصارات والهزائم وبألوان من المعاناة الشديدة لمآسي الحياة وأفراحها . ولو انكبَّ الفنانون العباقرة على تصوير الانفعالات التي تتفجر في نفوسهم أمام ذكريات هذه الألوان وتلك الأحداث لوجدنا أمامنا ملايين من الرسوم والتماثيل والألحان والقصائد والملاحم تستمد منها مادتها ثم لا يزال ما يبقى منها ينتظر ملايين أخرى من العقول لاستخراج المزيد من الأعمال الفنية الخالدة .

وتتوزع هذه كلها فيما تناثر من الأبراج العاجية والقلاع وجحافل المقاتلين وأكواخ الأنبياء وكهوف القديسين و نوادي الفلاسفة وأسواق الأدباء وقصور الملوك والأمراء ، تماما ، كما تتوزع الألحان في جوقة عملاقة عبقرية بقيادة عقل موسيقي كبير وتجربة قلب يتسع لعظمة الملحمة البشرية . ويتبين للمراقب العبقرى اتصال خفي وثيق بين حرب طروادة وملحمة هوميروس وبين الحروب العصرية وآيات الفن الشعري والفنون التشكيلية المختلفة التي تغمر العالم كله.

لا فرق في الزخم الفني وفي كثافة الانفعالات البشرية بين معارك كمعركة اليرموك أو كمعركة حطين أو عين جالوت أو معركة الطرف الأغر وبين تلك العقول التي سكبت في الجلود وأوراق البردى والصخور ، كتابة أو نقشا أو بناء ، حصيلتها الخصبية في تصوير التجربة البشرية الهائلة.

لنتذكر أن التوراة والإنجيل وكتابات القديسين في الغرب بالإضافة إلى صفحات القرآن الكريم والثروة الحديثة النبوية في الشرق قد شاركت ولا تزال تشارك في تخطيط المسرحية البشرية وتعيين أبعادها وترتيب مشاهدتها على نحو يدهش العقول ويسحر الألباب.

وليس تاريخ البحر الأبيض المتوسط الذي وضعه الكاتب الألماني لودفيغ غير محاولة سريعة تمّ بها رسم الخطوط البيانية لصورة البحر الأبيض المتوسط ، وتأني تراجم الرجال والأنهار التي وضعها هذا الكاتب المبدع خطوطاً ثانوية تدخل في أثناء الرسم الكبير لتملأ بعض فجواته. كما أن المجاميع التاريخية التي وضعتها أقلام مسلمة ضمن المنهجية التي تعني التصنيف والضبط ووضع الأحداث في مواضعها وتسليط الأضواء على دور كل منها في صميم الملحمة الرائعة التي تتألف أحداثها من تضحيات ملايين المسلمين وجهود عشرات الألوف من العقول والقلوب الإسلامية.

وطبيعي أننا حين نشير إلى ضخامة الدور الذي قام به البحر الأبيض المتوسط ورمز به إلى الجهد البشري الضخم فوق ذلك البحر ومن حوله فنحن لا ننقص من قدر الشرق الأقصى مع العلم أن الحوار البشري الفعال ذا الأبعاد العالمية قد كان في هذا البحر ومن حوله أبعد أثراً وأقوى فاعلية.

لقد كان الشرق الأقصى ولا يزال عالماً يعيش على هامش دنيا المتوسط رغم ضخامة الدور الذي قام ولا يزال يقوم به حتى اليوم.

وإذا كنا قد اخترنا تسليط الضوء على عالم البحر الأبيض المتوسط فلأن أحداث هذا العام ألصق بنا وأشد اتصالاً بأطماعنا البشرية وأكثر استمراراً في تحريك انفعالاتنا الحضارية.

العالم وراء سواحل المتوسط الغربية

في ضوء الوقائع التي سردناها ومن خلال مراقبتنا للأحداث التي أخذ بعضها برقاب بعض نستطيع أن نقرر بأن غربي البحر الأبيض المتوسط مثل ولا يزال يمثل عالماً قائماً بذاته مستقلاً عن الجانب الشرقي منه . وقد اصطلحنا على إطلاق اسم الحضارة الغربية على عالم الأقطار الممتدة ابتداءً من سواحل البحر الغربية والموصولة جغرافياً بأقصى الشمال حيث يقع القطب الشمالي.

والملاحظ أن القارة الأوروبية التي ترمز إلى هذه الأرض قد استقلت بموجات بشرية ذات طابع معين وصنعت تاريخها من مادة هذه الموجات بالذات في سلسلة من محاولات الهجرة التي تسلك جماهيرها طريقاً ثابتاً يبدأ من الشمال ويتجه نحو الجنوب الشرقي أو الغربي من أرض القارة الأوروبية.

ومهما يكن رأي المخالفين فالثابت أن الصلة وثيقة جداً بين الهجرات البشرية الضخمة وبين الانتفاضات الحضارية.

ثم تتكرر هذه الظاهرة ابتداءً من التاريخ المسيحي أو قبله بقليل على صورة مجموعات من القبائل البربرية الضخمة . فعرف التاريخ الأوروبي على امتداد القرون المسيحية الأولى مجموعات الفايكنج والكلتيين والبولوا والفرنجة وموجة كبيرة من برايرة المغول الذين أتوا عبر الصحراء السيبيرية الثلجية واجتاحوا أوروبا الشرقية حتى بلغوا روما في القرن الرابع الميلادي فهدموها وأشعلوا النار فيها وأطلقوا بذلك طلقة الرحمة التي وضعت نهايةً للأمبراطورية الرومانية الغربية.

واستمرت المفاعلات من بعد حتى انتهت الموجات البشرية المتنقلة لأسباب جغرافية أو اقتصادية أو عسكرية في أثناء الحروب الصليبية وتمّ بها اجتياح القسطنطينية ، عاصمة الروم ، في واحدة من غزوات هذه الحروب الثمانية ، هذا بالإضافة إلى الغزو الأوروبي الضخم الذي قامت به مجموعات كبيرة من الصعاليك والخارجين على القانون والمتمردين على عقائد الغرب التقليدية ومذاهبه الدينية بصورة عامة نحو القارة الأميركية الجديدة التي وقعت فيها على أثر تلك الهجرات وبسببها أحداث رهيبية في سلسلة من عمليات الاستئصال التي تناولت سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر. يضاف إلى هذه الهجرات الأوروبية هجرة أخرى تمت بالقوة وبأبشع أساليب القسر والاضطهاد ، حين أقدم النحاسون الأوروبيون بتشجيع من أصحاب الأراضي الأميركية الجديدة الواسعة وبسبب من الأرباح الناجمة عن تجارة الرقيق، على غزو السواحل الأفريقية الغربية واصطياد الرجال والنساء والأطفال من سكان البلاد الأصليين ونقلهم بالألوف وعشرات الألوف على امتداد ثلاثة قرون على الأقل ، وفي ظروف صحية سيئة جدا إلى الأرض الأميركية الجديدة.

لكن هذه الهجرة القسرية الأخيرة لم تلعب دورا مباشرا في صنع الحياة الأوروبية الأميركية الجديدة على نحو ينتزع فيها أصحابها خيوط المبادرة واقتطاع مناطق خاصة بهم . السبب في ذلك أن الزنوج المهجرين بالقوة لم يكونوا يملكون المبادرة والحويوية اللتين يشترطهما صنع الحضارات الشابة.

على أن الزنوج لم يلبثوا رغم دورهم الثانوي في صنع الحضارة الأميركية أن أسهموا إسهاما كبيرا في تلوين الأفكار الأميركية وبصورة خاصة التيارات الفنية الحديثة ابتداء من الشعر والموسيقى والمسرح.

ويقتضينا الإنصاف أن نعلن بأن العنصر الزنجي الذي مثل نسبة عالية من السكان مع الهنود الحمر في بعض البلدان الأميركية اللاتينية لم يفعل الكثير من أجل تغيير الحياة في المنطقة وتغذيتها بقدرات ثورية حاسمة. ومن المرجح أن يكون الرجل الأبيض المهاجر من أوروبا سبباً من أسباب هذا العجز.

كما يفرض علينا الإنصاف أن نسجّل الانتفاضات الثورية العنيفة التي حققها وحققها الزنوج ابتداء من الحرب الأميركية الأهلية ١٨٦٠ - ١٨٦٤ م.

حقيقة أولية يجب أن نعترف بها هي أن الهجرات الأوروبية الأساسية لا تزال حتى اليوم سيدة الموقف إبتداء من الشواطئ الغربية للبحر الأبيض المتوسط حتى أقصى القارة الأميركية.

يضاف إلى ذلك أن الرجل الأوروبي الأبيض قد توصل ، بعد كفاح طويل وعمليات عسكرية ومحاولات استعمارية تستعصي على الحصر، إلى صنع الحياة في العالم كله على صورته. مع العلم أن صنعه هذا قد تباين في تحقيق انتصاراته عند الشعوب الأفريقية والآسيوية.

والثابت أن المعركة بين موجات الغرب بنظاميها الرأسمالي والشيوعي وبين شعوب القارتين الأفريقية والآسيوية لا تزال محتدمة حتى يومنا هذا دون أن يتم لأي من الطرفين نصر نهائي حاسم.

نقرر هذه الحقيقة رغم نجاح الغربيين في نقل المعارك داخل أفريقيا وآسيا. لكن استمرار المعارك حتى يومنا هذا وتصعيدها بصورة مطردة هما الدلالة القوية على ضعف الآمال التي تحرك الغربيين لصنع العالم على الصورة التي يحبون.

وما يجري اليوم في كل من الشرق الأقصى بزعامة الصين الشعبية وفي الشرق العربي منذ انفجار العدوان الصهيوني ، ما يردّ زعم الزاعمين حول اقتراب المعركة من النهاية المرجوة من قبل المعتدين.

ولا يرد علينا أن الجناح الشيوعي قد كوّن الانتفاضة الصينية بلونه . فقد أثبتت الأحداث بعد انتصار ثورة ماوتسي تونغ أن الشيوعية كإطار ثوري وكمحتوى ثقافي لم تستطع أن تحطم المقاومة الآسيوية في الشرق الأقصى إذ لم تلبث حتى اتخذت لنفسها صفة المعارضة النابعة من ظاهرة الرفض والتمرد عند الآسيويين أمام الحضور الرأسمالي أو الشيوعي. وكلما مضت الأيام وتعاقبت الشهور والسنوات زادت حدة الرفض حتى كاد الصراع بين الصين والاتحاد السوفياتي الشيوعيين أن يبلغ أقصى حدته ويتجاوز في أبعاده ما بين الصين والولايات المتحدة.

أما ما يقرره أرنولد توينبي في كتابه الضخم " دراسة في التاريخ " من أن حضارة الغرب ستقضي على كل الحضارات الحية حتى اليوم بما فيها الحضارتان الصينية والإسلامية فهو لا يزال من صنع الأحلام الغربية التي يغذيها التفوق التكنيكي عند أصحابه.

حقيقة أساسية يجب أن نسلط الضوء عليها هي أن الهجرات الأوروبية نحو أفريقيا وآسيا لم تلبث حتى تراجعت أمام مقاومة السكان المحليين فتحولّ التغلغل الاقتصادي والثقافي إلى صراع حربي عنيف زادت فيه مقاومة الآسيويين

الأفريقيين زيادة كبيرة وزاد معها قلق الغرب وإحساسه بالخطر من احتمالات المستقبل وبدأ يشعر بضرورة تحقيق سياسة تعايش وتفاهم بين معسكريه الكبيرين الرأسمالي والشيوعي.

وليس خطة التعايش السلمي التي نادى بها كل من خروتشيف السوفيياتي وكنيدي الأميركي غير إعلان عن هذه الظاهرة الجديدة.

ومهما قيل في حجم الصراع بين الغرب الأوروبي بعالميه السوفيياتي والأميركي وبين الشرق الأقصى بقيادة الصين الشعبية ، فإن معطيات الاستراتيجية الجغرافية والاحتياطي البترولي في الشرق العربي بخاصة تفرض أن تكون احتمالات الصراع في المستقبل أشد حدة بين غربي المتوسط ، أي عالم الحضارة الغربية ، وبين شرقي المتوسط ، أي عالم الحضارة العربية الإسلامية.

ولا يغير من أهمية هذه الحقيقة أن حجم النزاع عبر الوجود الصهيوني لم يبلغ بعد ما بلغه النزاع في الشرق الآسيوي.

إن احتمالات هذا النزاع تبدو في ضوء المعطيات الاستراتيجية أعظم خطراً وأبعد أثراً لاسيما وأنّ الغرب يشعر شعوراً قويا بأهمية الدور القيادي الذي يمكن أن يقوم به الجانب العربي في موكب الحضارة الإسلامية عندما تأتي الظروف المواتية.

إن اهتمام الأوساط الرأسمالية والشيوعية بما يجري في العالم العربي ومتابعتها عن قرب لكل التيارات القائمة او التي يحتمل قيامها في المستقبل هو من القوة بحيث لا تنفك أبدا عن تذليل العقبات وإغراق المعارضة وتزييف الأفكار الحية وتفتيت القوى النامية ولا تألوا جهداً في تشجيع التناقضات الداخلية في المنطقة العربية الواسعة.

إن تراثا هائلاً من المنازعات والتحديات المتبادلة يتصل في جذوره بأعماق التاريخ يقف حاجزاً بين الفريقين يضاف إلى ذلك أن ذكريات هذا التراث لا تزال حية قوية في بطانة السياسة التي يصنعها عالم ما وراء الشواطئ الغربية من البحر الأبيض المتوسط في مواجهته لعالم ما وراء الشواطئ الشرقية من هذا البحر نفسه.

إن نظرة شاملة نلقيها على عالم الحضارة الغربية بعد الملاحظات التي سجلناها في هذه المقالة تثبت أن الأصول البشرية لهذا العالم هي الشمال الأوروبي أو الشمال الشرقي من هذه القارة بما فيها المناطق الشاسعة لدولة الاتحاد السوفياتي . كما تثبت أيضا أن النهضة الغربية مع تفرعاتها الناجمة عنها قد كانت النتيجة الحتمية لتنقلات الموجات البربرية في كل أقطارها.

وفي وسعنا القول أن مصادر هذه الموجات هي الخزان البشري الذي زوّد الغرب ابتداء من بزوغ الحضارة اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد حتى اليوم بما يحتاج إليه من الرجال الأقوياء .

وأن هذه المصادر هي التي صنعت دورة الغرب المتكاملة والمستقلة بذاتها رغم كل العناصر الأجنبية التي تغلغت عبر الأرض الأوروبية حاملة معها العقائد والأفكار والتجارب ومناهج البحث. وحتى المسيحية نفسها وهي أقوى عطاء فكري روحي حملته هذه العناصر الأجنبية لم تستطع أن تهدم هذه الدورة وتنزع عنها أصلتها الحضارية . لقد اضطرت المسيحية الغربية في مذاهبها المتعددة أن تندمج في صميم العقلية الغربية وان تأخذ شكلها الحضاري حفاظاً على وجودها. هذا في الوقت الذي استمرت فيه المسيحية الشرقية رسالة نبوية لم تلبث أن وجدت في الإسلام صيغتها اللاحقة ومفهومها النابع من حضارة الشرق العربي الإسلامي.

حتى هنا نكون قد وضعنا النقاط على الحروف بالنسبة لظواهرات المهجرات البشرية التي صنعت ولا تزال تصنع الفكر الغربي وعقائده وفلسفاته ورؤيته لحقائق الأشياء .

أما الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط فلها حكاية أخرى سنتعرض لها في مقالة لاحقة.